﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: 29 - 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

بعد ذكرِ الأخبار الغيبيَّة لما مضى؛ ناسب ذِكرُ الأخبار الغيبيَّة للحاضر

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة قصَّة هود ﷺ مع قومِه، وأخذ العِبرة فيما يعود على المخاطَبين بخيرٍ؛ ناسب الانتقال إلى أمرٍ عجيب في مضمونه، وهو أنَّ الله تعالى صرف نفرًا من الجنِّ؛ ليستمعوا القرآن، فإذا أعرض المشركون من قومِه ﷺ كما أعرض من سبقهم، فإنَّ هناك من يُقبل على القرآن استماعًا وإيمانًا من غير قومِه، بل من غير الجنس البشري عمومًا، وهم الجنُّ، ففيه تأييدٌ للنَّبيِّ ﷺ بأمرٍ غيبيٍّ، وتسلية عمّا يختلج صدره من الشُّعور بالحزن على قومِه؛ لعدم استجابتهم لدعوة الحقِّ المنجية من عذاب النّار.

كما يُقال: إنَّه لما بيَّن أنَّ الإنسيَّ مؤمنٌ وكافر، وذكر أنَّ الجنَّ فيهم مؤمن وكافر، وكان ذلك بعقب قصَّة هود وقومه؛ لما كان عليه قومه من الشِّدَّة والقوَّة، والجنُّ توصف أيضًا بذلك، وإنَّ ما أُهلك به قومُ هود هو الرّيح، وهو من العالم الَّذي لا يُشاهد، وإنَّما يُحسُّ بهبوبه، والجنُّ أيضًا من العالم الَّذي لا يُشاهد[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرَفْنَآ﴾: (صرف) معظم أبوابه في ردّ الشيء ورجوعه[2]، فالصَّرْفُ: ردُّ الشَّيء مِن حالة إلى حالة، أو إبدالُه بغيره، يقال:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (صرف).

صَرفْتُ الرَّجُلَ عَنّي فانْصَرَفَ، والمُنْصَرَفُ: قَدْ يَكونُ مَكانًا وقَدْ يَكونُ مَصْدَرًا، والصَّرْفُ: أن تَصْرِفَ إنْسانًا عَنْ وجْهٍ يُريدُهُ إلَى مَصْرِفٍ غَيْرِ ذَلِكَ[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: قلَبْنا وجهتَهم إليك وأرجعنا سمعهم إليك، ليستمعوا منك القرآن[2].

2) ﴿نَفَرًا﴾: النَّفْر والنَّفْرة - بالفتح - والنَّفيرُ: القومُ ينفِرون معك، يَخْرُجون لقتال، نَفَرَت الدّابة نِفارًا ونُفورًا، ونَفَر الظَّبيُ: شَرَد، والإبلُ: تَفَرَّقت، نفر الجُرْحُ: ورِمَ، والعَينُ وغيرُها: هاجت، وورمت، ونَفَرُ القومِ - محركةً -: جماعتُهم الَّذين ينفرون في الأمر، قال تعالى: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف: 34]، وقال: ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: 1][3]، فمعنى قوله تعالى: ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: جماعة منهم نفروا إلى سماع القرآن من الرَّسول ﷺ.

3) ﴿حَضَرُوهُ﴾: (حضر): إيراد الشَّيء، وروده ومشاهدته، وقد يجيء ما يَبعُد عن هذا، وإن كان الأصل واحدًا، فالحَضَر خلاف البَدْو، وسكون الحَضَر الحضارة، قال:

فَمَنْ تَكُنِ الحَضارَةُ أعْجَبَتهُ *** فَأيَّ رِجالِ باديَةٍ تَرانا

وتأوَّل ناس قوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: 98]، أي: أن يصيبوني بسوء، والباب كلُّه واحد، وذلك أنَّهم يَحْضُرونه بِسوء، ويقال للحاضر، وهي الحي العظيم.

4) ﴿أَنصِتُواْ﴾: (نصت) يدلُّ على السُّكوت، و(أنصتَ) يكون لاستماع الحديث، ونَصَتَ يَنْصِتُ[4]، والإنصاتُ على هذا أقوى من الاستماع، وفيه من الاستعدادِ للقبول، أو من الخشوع - ما ليس في الاستماع الذي يتحقَّقُ بمجرَّدِ الاستعداد لوصول الصَّوت إلى الأذن[5]، ويُقالُ: أنْصَتَ إذا سَكَتَ؛ وأنْصَتَ غيرَه إذا أسْكَتَه[6].

5) ﴿قُضِيَ﴾: القضاء في اللُّغة: إحكام الشَّيء، وإمضاؤه، والفراغ منه، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ [يونس: 71]، أي: افرُغوا مِن أمركم، وأمضوا ما في أنفسكم.

و(قضى) في القرآن واللُّغة يأتي على وجوهٍ تتقارب معانيها، ومرجعها كلُّها إلى

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صرف).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (صرف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/ 434.
(5) الخليل، العين، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نصت).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نصت).

انقطاع الشَّيء وتمامِه، والفراغِ منه، منها: قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ [فصلت: 12]، أراد: قطعهنَّ، وأحكم خلقهنَّ، وفرغ منهنَّ، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾، أي: فرغ من تلاوته[1].

6) ﴿وَلَّوۡاْ﴾: الوَلِيُّ: القُربُ والدُّنوُّ، يقال: تباعد بعد ولْيٍ، وأوليته الشَّيءَ فوَلِيَهُ، وكذلك وليَ الوالي البلد، ووَلِيَ الرَّجلُ البَيِّعَ، وِلايَةً فيهما، وأولَيتُهُ معروفًا، وتَوَلَّى العملَ، أي: تقلَّد، وتَوَلَّى عنه: أعرض، وولَّى هاربًا: أدبَرَ، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: 148]، أي: مستقبِلُها بوجهه[2].

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، أي: أسرعوا إلى قومهم مخوِّفين إيّاهم من الاستمرار على الكفر الَّذي هم عليه، مرغِّبين في اتِّباع الرَّسول ﷺ، والإيمان بالقرآن الكريم وما فيه من تفاصيل الدّين.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطب الله تعالى محمَّدًا ﷺ بواقعة سَوْقِ نَفر من جنس الجِنِّ إليه، وهو يتلو القرآن الكريم، فلمّا وصلوا إليه، وسمعوه يتلو، وحضرت نفوسُهم، وانفعلت للقرآن الكريم؛ استنصَتَ بعضهُم بعضًا؛ ليستمعوا إلى عظمة الكتاب العزيز، ويستمتعوا به.

استماعُ الجنِّ للقرآنِ وإيمانُهم به حجَّةٌ على سائر البشرِ ممَّن يعبدُ الحجر

فلمّا انتهى النَّبيُّ ﷺ من تلاوته؛ هرولوا مولّين وجوههم قِبَلَ قومهم من الجنِّ؛ ليُخوِّفوهم خطرَ ما هم عليه من الكفر، ويبشِّروهم بما أنزل على محمَّد ﷺ، أنزله الله تعالى من بعد الكتاب الَّذي أنزله على موسى عليه السلام - وهو التَّوراة - وأنَّ الكتاب الجديد يَنبثق من نفس مشكاة التَّوراة، فهو يُرشِد إلى الهُدى، ويَدُلُّ على التَّشريع الحكيم.

(1) ابن بطال، النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب: (قضي).
(2) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (ولي).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

التَّعريضُ بالمشركين وتوبيخُهم على شديدِ عنادهم

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تحتمل أن تكونَ استئنافيَّة؛ يستأنف بها النَّظم الكريم امتنانًا على الرَّسول ﷺ، بتذكيره بتوحيد نفر من الجنِّ الصالح؛ إذ أسلموا حين سمعوا القرآن الكريم منه ﷺ.

وتحتمل أن تكونَ عاطفة على جملة: ﴿*وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: 21] من عطف القصَّة على القصَّة[1]؛ تعريضًا بكُفر قريش ككفر قوم عاد، "أي: واذكر لِقومك وقت صرفنا إليك نفرًا من الجنِّ مقدَّرًا استماعُهم القرآنَ؛ لعلَّهم يتنبَّهون لجهلهم وغلطهم وقبح ما هم عليه من الكفر بالقرآن والإعراض عنه؛ إذ إنَّهم كفروا به، وجهلوا أنَّه من عند الله تعالى، وهم أهل اللِّسان الَّذي نزل به، ومن جنس الرَّسول الَّذي جاء به، وأولئك استمعوه، وعلموا أنَّه من عنده تعالى، وآمنوا به، وليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله، ففي ذِكر هذه القصَّة توبيخ لكفّار قريش والعرب"[2].

نكتةُ حذفِ العامل في (إذ):

الحدثُ العجيبُ يطوي التَّنبيه البليغ

(إذ) كلمةٌ تدلُّ على ما مضى من الزَّمان، وهي اسمٌ مبنيٌّ على السُّكون، وحقُّه أن يكون مضافًا إلى جملة، تقول: جئتك إذ قام زيد، وإذ زيد قائم، فإذا لم تضف؛ نوِّنت[3]، فيقال: (حينئذٍ)، فهي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ظرفٌ منصوبٌ بِفِعْلٍ محذوف، والتَّقدير: واذكُر يا محمَّد إذ صرفنا؛ وحذف هذا الناصب يوَفِّرُ عناية المتلقّي على الحدَث نفسه، وما فيه من عجَبٍ وكرامةٍ للرَّسول ﷺ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 57.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 187.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أذذ).

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿صَرَفْنَآ﴾:

صرفُ الجنِّ إلى استماعِ القرآن إنباءٌ عن كريم رعايةِ الرَّحمن

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة (صرف) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، فمعنى صرْفِ الشَّيء إلى الشَّيء: توجيهه إليه، ومنه تصريف الرياح، أي: إطلاقها من مهابِّها الَّتي تهبُّ منها إلى الجهات الموجَّهة إليها، وهذا يعني أنَّ الله ﷻ قد وجَّه هؤلاء النَّفر من الجنِّ، إلى حيثُ كان النَّبيُّ ﷺ يتلو القرآن[1]، كما أنَّه قد دلَّ هذا الفعلُ على تطويع القلوب، وتوجيهها إلى حيث كان الرَّسول ﷺ، والإتيان بهم إليه بلا أدنى كُلْفَةٍ تَكَفَّلها ﷻ بخصوص دعوتهم؛ ليسمعوا منه، فيتأثَّروا به، وذلك محضُ فضلٍ وتوفيق من الله تعالى له وعليه ﷻ، فمعنى ﴿صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: ألْقينا في قلوبهم مَيْلًا وداعيةً إلى استماع القرآن[2]، وأقبلنا بهم نحوك[3].

نكتةُ إسناد فعل (صرف) إلى نون العظمة:

تطويعُ قلوب العبادِ وتصريفها بيدِ العظيم ﷻ

أُسنِدَ فعل (صرف) إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ وذلك للإشعار بعظمة الحدث، وأنَّ الله ﷻ هو من تكفَّل به، فهو القادر على تطويع القلوب، قلوبِ الإنس والجنِّ والإتيان بهم باقتدار، ولا يقدر على ذلك إلّا العظيم ﷻ.

كما أنَّ في إسناد فعل الصَّرف إلى نون العظمة تعظيمًا لهذه المنَّة الرَّحمانيَّة عليه ﷺ؛ إذ فيها البشارة بأنَّ دعوته بدأت تُؤتي ثمارَها في النَّوع الثّاني من المكلَّفين، وهم أحد الثَّقَلين المخاطَبَين بالدّين الحنيف، حيث عموميَّةُ رسالته الخاتمة ﷺ.

دلالةُ تعدية الفعل بحرف (إلى):

عُدّي فعلُ (صرف) بحرف (إلى) في قوله تعالى: ﴿صَرَفْنَآ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 296.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 28.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 311.

إِلَيۡكَ﴾ لبيان انتهاء الغاية؛ إذ كان ﷺ غايةَ صرف الجنِّ ومنتهاه، ففي (إلى) إذًا بيانُ تكريمه ﷺ رسولَه ﷺ؛ إذ جعله منتهى طلبِ المصروفين إليه من الجنِّ، كما أنَّ من وراء ذلك غايةً أخرى، وهي الغاية العظمى، وهي استماع القرآنِ.

صرفُ الجنِّ كان لغاية الإقبال على الرَّسول والاستماع للرسالة

فالغاية هنا معنويَّة وحسّيَّة: حسّيَّة؛ إذ أقبلوا إلى الرَّسول ﷺ بهيئتهم حتّى أتوا إليه، ومثلوا بين يديه، ومعنويَّة؛ إذ أولَوه الانتباه، واستنصت بعضُهم بعضًا، واستمعوا منه القرآن الكريم بعناية ووقار، و"هكذا شأن أهل الخير، وطلاب الكمال الإنساني، ينشدون الهدى، ويرتادون مواقعه، ويستنبِئون أنباءه، حتّى إذا لا حت لهم بشائره، ولمعت بروق غيومه؛ أقبلوا عليه مسرعين، في لهفة وشوق، لا يثنيهم عن وجهتهم إليه بُعد الشُّقَّة، ولا قلَّة الزّاد، ولا تربُّص الأعداء، وكما يسعى الكائن الحيُّ إلى رزقه، ويطرق من أجله كلَّ باب يُخيَّل إليه أنَّ وراءه شيئًا يشبع جوعه، أو يطفئ ظمأه، كذلك يفعل الرّاشدون والعقلاء من النّاس؛ إذ يسعون في طلب غذائهم الرّوحي والعقليِّ"[1].

دلالةُ ضمير الخطاب:

تشريفُ الرَّسولِ وتكريمُه سلوى عن كلِّ حزنٍ وحسرة

كثُر في السّورة الكريمة خطاب الرَّسول ﷺ، من مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ﴾ [الأحقاف: 4]، وقوله: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9]، وقوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: 10]، وقوله: ﴿*وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: 21]، وفي هذه الآية: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الخطاب موجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، وفي هذا الخطاب الإلهيِّ تشريفٌ وتكريمٌ وتسليةٌ لدفعِ حزنِ إدبار المشركين عن الاستجابة لدعوته ﷺ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 296.

غرضُ تقديمِ قيدِ ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المفعول:

بيانُ قصدِ فعل الصَّرفِ لتقويةِ الغايةِ

قُدِّم قيد ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المفعول في قوله تعالى: ﴿صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا﴾؛ لتقويةِ دلالةِ القصد بالفعلِ، فالصَّرف ابتداءً وانتهاءً كان لرسول ﷺ؛ لاستماع القرآنِ والاهتداء به؛ إذ تتآزر دلالة القصر الكامنة وراء تقديم ﴿إِلَيۡكَ﴾؛ إذ اختُصَّ الرَّسول ﷺ بذلك الخطاب، مع دلالة (إلى)، ومادَّة الصَّرف على الاحتفاء والتَّكريم له ﷺ، والإشعار بكرامته صلّى الله تعالى عليه وسلَّم.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿نَفَرٗا﴾:

إقبالُ الجنِّ امتزجَ بالسُّرعةِ والاحتفاءِ بالمنفورِ إليه

آثر النَّظم الكريم إطلاقُ مفردة ﴿نَفَرٗا﴾ على الجنِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، "والنفر: عدد من النّاس دون العشرين، وإطلاقه على الجنِّ؛ لتنزيلهم منزلةَ الإنس وبيانه بقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾"[1]، وذلك لبيانِ سرعة نفير هؤلاء الجنِّ، وفرط نشاطهم في إتيانهم رسولَ ﷺ، فمفردة (نفر) مأخوذة من النَّفير؛ لأنَّ الرجلَ إذا حَزَبَهُ أمرٌ؛ نَفَر بَعضُ النّاس الَّذين يهتمّون بأمره لإغاثته[2]، كما أنَّ فيه دعمًا لدلالة تكريمه والاحتفاء به ﷺ؛ إذ الإقبال ممزوجٌ برغبةٍ يحدوها شغف لسماعِ القرآن، وتلك دلالات تفوح من مادَّة (نفر)، ولمّا كان استعطافُ مَن جُبِل على النُّفْرة، وإظهارُ مَن بُني على الاجتنان أعظمَ في النِّعمة؛ عَبَّر بِما يدلُّ على ذلك، فقال: ﴿نَفَرٗا﴾، وحَسَّن التَّعبيرَ به أنَّ هؤلاء لَمّا خُصّوا بشرف السَّبْق وحُسْن المتابعة؛ كانوا كأنَّهم هم النَّفر لا غيرهم، مع أنَّه ليس لهؤلاءِ النَّفر من جبلّاتهم إلّا النُّفرة والاجتنان[3]، كما أنَّ فيه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 58.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 205.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 178.

إشارةً إلى أنَّ المصروفين رجالًا لا أنثى فيهم[1]؛ لأنَّ الرِّجال هم الَّذين إذا حَزَبَهُم أمرٌ؛ نفروا لكفايته[2].

نوعُ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أفادَ البيانَ، فهُم من الجنِّ لا من الإنس، وهم بعضُ الجنِّ لا كلُّهم، فهُم نفرٌ كائنٌ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

موقع جملة ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾:

استجابةُ القلوبِ لله تعالى على الفور لا التَّراخي

جملة: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ صفةٌ أخرى لـ ﴿نَفَرًا﴾، أو حالٌ مقدَّرةٌ مِنه، وكأنَّ صرْفَهم كان مزامنًا للاستماع، وإنَّما استمعوا حين انتهوا إليه ﷺ، وفي ذلك إيحاءٌ بارتباط السَّبب بالمسبَّب، أي: الصَّرف بغايته، وهو الاستماع؛ إيحاءً بسرعة النَّفير إليه ﷺ، وسرعة الحضور والجلوس للاستماع.

دلالةُ التَّعبير (بالاستماع) دون (السماع):

الاستماعُ يكونُ بقصدٍ وحرصٍ والسَّماع يأتي اتِّفاقًا

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة (الاستماع) لا (السَّماع)؛ لِما في زيادة السّين والتّاء مِن معنى الطَّلب، ولِما في الافتعال مِن التَّصرُّف والسَّعي والاعتمال في ذلك الفِعل، وقد فرَّقوا بين (المستمع) و(السامع) "بأنَّ المستمع مَن كان قاصِدًا للسَّماع، مصغيًا إليه، والسّامعُ مَنِ اتَّفَقَ سماعُه مِن غيرِ قصْدٍ إليه، فكلُّ مستمِعٍ سامعٌ مِن غير عكس"[3]، فقوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: "يطلبون سماع الذِّكر الجامع لكلِّ خير، الفارق بين كل ملبس"[4]، ففي الاستماع حرصٌ منهم على الإنصات، وتركيز على تلقُّف ما ينطق به الرَّسول ﷺ من الذِّكر الحكيم.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 105.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 186.
(3) حقي، روح البيان: 3/ 303.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 178.

بلاغةُ تضمينِ فعلِ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ علَّةَ الصَّرفِ:

صَرْفُ الجنِّ مسبَّبٌ عن استماعِ القرآنِ

قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ في موضع الحال من الجنِّ، ولمّا كانت الحالُ قيدًا لعاملها، وهو ﴿صَرَفْنَآ﴾؛ كان التَّقدير: يستمعون منك إذا حضروا لديك؛ فصار ذلك مؤدّيًا مؤدَّى المفعول لأجله، فالمعنى: صرفناهم إليك؛ ليستمعوا القرآن[1]، وعليه ففي فعل ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ علَّة الصَّرفِ.

نكتةُ اختيارِ اسمِ القرآن دون الكتاب:

سياقُ الآيةِ يَصطَفي ما يَفي بِمُقتَضَياتِ المعاني

في اصطفاء اسم ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ اتِّساقٌ تامٌّ مع عناصر التَّركيب في هذا السياق؛ إذ الفعل ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ يقتضي سماعَ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ لا (الكتاب)؛ لأنَّ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ يُقرأُ باللِّسانِ، فيُسمَع بالآذان، أمّا (الكتاب)؛ فيُكتبُ بالأيدي، فالمقروء مسموعٌ، والمكتوبُ منظورٌ، كما أنَّ القرآن هو الاسم العَلَم على الكتابِ المنزَل على النَّبيِّ ﷺ، والأصل استعمالُ الاسم الأشهر، إلّا إن كان هناك نكتةٌ تقتضي العدول إلى التَّعبير باسمٍ آخر من أسماءِ القرآنِ.

بلاغةُ التَّعريضِ بالمشركين في الآيةِ:

الإخبارُ باستماعِ الجنِّ للقرآنِ توبيخٌ للإنسِ أصحاب البيان

في الإخبار بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تعريضٌ بالمشركين الرافضين قبولَ الإيمان بوحدانيَّة الله تعالى، والتَّصديق بأنَّ القرآن الكريم كلامه ﷻ، وهم العربُ الخُلَّص، الفاقهون بلاغته، العارفون بدقائق لطائف عربيَّته؛ ففي هذه القصَّة توبيخ لهم؛ إذ إنَّ الجنَّ سمعوا القرآن؛ فآمنوا به، وعلموا أنَّه من عند الله تعالى، وهؤلاء مُعرِضون عنه، مُصِرّون على الكفر به، مع أنَّهم من أهل اللِّسان الَّذي نزل به، ومن جنس الرَّسول الَّذي جاء به، والجنُّ ليسوا كذلك[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 58.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 934.

وقد أمر الله رسولَه ﷺ بذكر هذا للمشركين، وإن كانوا لا يُصدِّقونه لِتسجيل بلوغِ ذلك إليهم؛ لينتفع به من يهتدي، ولِتُكتَب تبعته على الَّذين لا يهتدون[1].

نوعُ الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾:

سلطانُ القرآنِ عظيمٌ في قلوبِ الصّالحين

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ تفريعيَّة، تفرَّع حضورهم القرآن الكريم على صرفه تعالى إيّاهم إلى الرَّسول ﷺ، وكذلك هي ترتيبيَّة؛ تُرَتِّب حضورهم تلاوته على صرف الله تعالى إيّاهم إليه، وهي تُؤذِن بفوريَّة حضورهم إيّاه؛ تأثُّرًا بفعل سلطان صرفه ﷻ، وتوجيه قلوبهم إلى هنالك، و"قُرب زمن الصَّرف من زمن الحضور"[2].

دلالةُ استعمالِ (لما) وفائدتها:

بمجرَّد الحضورِ تـهـيَّـأ الـقـلـب للإنصاتِ

(لمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ هي (لمّا) الحينيَّة، وفائدتها ترتيبُ زمنِ طلبِ الإنصات على لحظةِ حضورِهم إيّاه بلا فاصل زمنيٍّ، فهي تُفيد تقليص الزَّمن بين جزائها وشرطها، ودخول (الفاء) عليها دون (الواو) تقويةٌ لهذه الفائدة، وفي ذلك إيحاء بشدَّة تأثُّر النَّفر من الجنِّ بالقرآن الكريم، وشدَّة تعلُّقهم به واستحسانهم له، وحرصهم على تصفية اللَّحظة من أيِّ تشويش قد يشغل عن تدبُّر القرآن الكريم.

دلالةُ استعمال مفردة الحضور:

الـحـضـورُ في أصـلِـه للخير الأصيل المقصود أصالةً

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الحضور في جملة: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾؛ وذلك لدلالة مفردة الحضورِ على التِماس الخير الدّائم، فإنَّ الحاضرة هم الَّذين يأتون الماء العذب، الَّذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 57.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 178.

لا ينقطع بخلاف البادية[1]، فلفظ الحضور يُشير إلى أنَّهم حضروا أصلَ الخير والحقِّ، فيكون الحضور فيه معنى القصد، وهذا أحد المعاني الأصيلة المصاحبة لهذه اللَّفظة، بخلاف المجيء والإتيان؛ فقد يكون عرضًا.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿حَضَرُوهُ﴾:

تدلُّ صيغة المضيِّ في جملة ﴿حَضَرُوهُ﴾ على تحقُّق وقوعه فعلًا، وكذلك هي الأشكل بدلالتي (الفاء)، و(لمّا)، فتتَّسق الدَّلالات، ويوفَّى المقام حقه.

تعيين مرجع الضَّمير:

ضمير المفعول في جملة ﴿حَضَرُوهُ﴾ يرجع إلى القرآن المذكور في جملة الصِّفة أو الحال ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وتعدية فِعل الحضور إلى ضمير القرآن بنفسه يقرِّر أنَّ الحضور المقصود حضور معانيه، وفهْمُ مراميه، والتَّأثُّر به، ويأتي حضور أبدانهم في المقام الثّاني، و"تعدية فعل (حضروا) إلى ضمير القرآن تعديةٌ مجازيَّة؛ لأنَّهم إنَّما حضروا قارئ القرآن، وهو الرَّسول ﷺ"[2].

الظاهرُ عودةُ الضَّمير إلى القرآن، ويحتمل أنَّه يعود إلى النَّبيِّ، فيكون التفاتًا

وهذا هو الَّذي يقتضيه الظاهر، ويحتمل أن يرجع الضَّمير إلى الرَّسول ﷺ، "وحينئذٍ يكونُ في الكلام التفاتٌ مِن قولِه: ﴿إِلَيْكَ﴾ إلى الغَيْبَةِ في قولِه: ﴿حَضَرُوهُ﴾"[3]، وهو التفاتٌ من خطاب الرَّسول ﷺ إلى الإخبارِ عنه.

موقعُ جملة ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾:

وقعت جملة: ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ جوابًا لـ (لمّا) الحينيَّة في جملة: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾، أي: إنَّ قول النَّفر من الجنِّ: ﴿أَنصِتُواْ﴾ قد حصل، وتحقَّق فورَ حضورهم.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حضر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 58.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 679.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

صـدورُ الفعلِ عن الجزءِ دليلُ رضا الكلّ

في إسناد فعل القول إلى ضمير الجماعة في جملة: ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ وصدور مثل ذلك يكون عادةً عن بعض النَّفر لا عن كلِّه؛ لبيانِ ارتضاء الجميع هذا الأمر، فكأنَّ كلًّا منهم قال: ﴿أَنصِتُواْۖ﴾، وهذا الإسناد من باب المجاز العقليِّ بإسناد ما هو لبعض النَّفر إلى جميعهم لعلاقة الكلّيَّة.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿أَنصِتُواْۖ﴾ دون (استمعوا):

الإنـصـاتُ الخاشعِ اليقِظ يفتح المدركات إلى استقبال الآيات

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الإنصات دون الاستماع في قوله تعالى: ﴿أَنصِتُواْۖ﴾، والإنصات هو الاستماعُ مع العنايةِ بالمسموع بتدبُّرٍ وتأمُّل[1]، أمّا الاستماع؛ فهو دونه، ودونهما السَّماع، وهو ما يدلُّ على شديدِ حرصهم على تهدئة الجوِّ وتصفيته من الضَّوضاء؛ بحيث يمكنهم الاستماع منصتين للقرآن الكريم؛ لهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف: 204]، فإنَّ الإنصات لا يكون إلّا بعد الاستماع، وإلى ذلك ففي طلبِ الإنصاتِ "تأدُّبٌ مع العلم في تَعلُّمه وأيضًا مع مُعلِّمه"[2]، قال القشيريُّ: "فأهلُ الحضور صفتُهم الذُّبول والسُّكون، والهيبة والوقار"[3].

سرُّ ذكر ﴿أَنصِتُواْۖ﴾ مقولًا للقولِ لا خبرًا:

مـا جـاء عليه النَّظم الكريم خـبرٌ وفـائـدتـه الغيبيَّة

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بجملة: ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾، فجاء فعل ﴿أَنصِتُواْۖ﴾ مقولًا لقولِ الجنِّ عمّا قاله بعضهم لبعضِهم الآخر، دون أن يكون خبرًا عن فعل الإنصات الَّذي كان منهم، فلم يقل: (فلما حضروه أنْصَتوا)؛ وذلك لبيانِ أنَّ العناية وشدَّة حرص النَّفر من الجنِّ على سماع القرآنِ، وعلى المبادرةِ في أمرِ بعضهم

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 452.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 179.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 400.

بعضًا بالإنصاتِ، وتصوير المشهد الغيبيِّ بتفاصيله، ولو قال: (فلمّا حضروه؛ أنصَتوا)؛ لكان مجرَّد خبرٍ، بينما ما جاء عليه النَّظم الكريمُ يفيد معنى الخبر، ويزيد عليه تصوير المشهد، وبيان حرص الجنِّ على الإنصات بقصد الاستماع.

نوعُ (الفاء) ودلالتها:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ فاء التَّرتيب والتَّعقيب، أي: إنَّ تَوَلّيَهم إلى قومهم منذرين حصل بعقب انتهائه ﷺ من قراءة القرآن الكريم، وفي ذلك دليل انبهارهم وشدَّة تأثير القرآن الكريم في أحاسيسهم، حتّى إنَّهم لَيُسْرِعون إلى قومهم منذرين، وفي (الفاء) دليل على "أنَّ ما استمعوه كان يسيرًا، وزمنُه قصيرًا"[1].

تـأثـيرُ الـقـولِ الحقِّ في المؤمنين لا يتأخَّر

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل ﴿قُضِيَ﴾:

آثر النَّظم الكريم استعمال فعل ﴿قُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي: فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من القراءة وتلاوة القرآن[2]، وفي التَّعبير بفعل ﴿قُضِيَ﴾ بدلًا من مقارباتها كـ(فرغ)، و(انتهى) ونحوهما، "ممّا يدلُّ على بلوغ الغاية، إشارة إلى أنَّ حقًّا يُقْضَى، ومطلوبًا يُطْلَب، فالنَّبيُّ ﷺ كان يَقصد بتلاوة القرآن في ليلته تلك ذِكرَ ربِّه، وإرواء قلبه بكلمات الله تعالى، والجنُّ الذين استمعوا قد كان مجلسهم للاستماع إنَّما هو لالتماس خير، وطلب هدًى، وقد قَضى النَّبيُّ الكريم مأربه بتلاوة ما تيسَّر له من القرآن، كما قَضى الجنُّ طلبَتَهم فيما جاؤوا له من التماس الخير والهدى"[3]، كما أنَّ في استعمال هذا الفعل دليلًا على أنَّ الجنَّ لم يتحرَّكوا قبل قضاء قراءة القرآن الكريم، فلمّا قضى قراءته؛ ذهبوا إلى أقوامهم.

عـلى الـقـارئ أن يـنـوي خـيرًا بقراءته ولو كان وحده

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 179.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 170.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 297.

كما أنَّ التَّعبيرَ بهذا الفعل يومئ إلى تصوير قصديَّة قراءة القرآن، وأنَّ على القارئ أن ينويَ خيرًا في قراءته، فإنَّ قراءة القرآنِ تأتي بالخيرِ، ولو جهلناه، ومن فوائد هذه الآيةِ سنّيَّة رفع الصّوت عند قراءة القرآن، فلا يعلم أحدٌ من ينتفع بقراءته.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل ﴿وَلَّوْاْ﴾:

من آمن بالقرآنِ أسرعَ في إنقاذ من يحبُّ ولهجَ بدعاءِ من أحبَّ

آثر النَّظم الكريم استعمال فعل ﴿وَلَّوْاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، دون فعل (انصرفوا)، ووجه الاعتناء بالألفاظِ أن يأتي بـ(انصرفوا) دون (ولوا)؛ لقرب العهد مع فعل ﴿صَرَفْنَآ﴾، وهو ما يدلُّ على أنَّ القرآنَ يعتني بالمعاني، ويأتي بما يُبيِّن المطلوب دون غيره، فدلَّ فعلُ ﴿وَلَّوْاْ﴾ على التَّوجُّه إلى قومهم، والإسراع نحوهم بهذا الخبر الكبير، والإنذار المهيب، فمعنى ﴿وَلَّوْاْ﴾، أي: "انصرفوا من مكان الاستماع، ورجعوا إلى حيث يكون جنسهم"[1]، فقد "كمُل تأثُّرهم به، فأرادوا التَّأثير به، لذلك ﴿وَلَّوْاْ﴾"[2]، وفي فعل ﴿وَلَّوْاْ﴾ تصويرٌ لغويٌّ مجرَّد، وكأنَّهم لسرعتهم يهربون من محذور إلى مأمون، فهُم قد فزعوا إلى قومهم خوفًا عليهم؛ لأنَّهم وجدوا الهُدى، وآمنوا بالكتاب، فأمِنوا الضَّلال.

دلالةُ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

غايةُ المؤمنين إنذارُ النّاسِ بقصد هدايتهم

﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ تُنْبِئُ عن غاية النَّفر المؤمن من الجنِّ بعد استماعهم القرآنَ الكريم من النَّبيِّ ﷺ، فغايتهم هي تَدارُك قومِهم لاستنقاذهم من الضَّلال والكفر ﴿إِلَىٰ﴾ الإيمان بالدّين القويم، الَّذي وفَّقهم الله تعالى إليه، فآمنوا به، وبيانُ هذه الغاية يُشيرُ إلى حرصِ الصّالحين على هداية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 59.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 452.

الناس وبخاصَّةٍ أقوامهم، وأنَّ على المؤمنِ أن يبدأ بالأقربِ فالأقرب، فيُنذر عشيرته الأقربين.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (قوم):

القـــومُ مَـن يقوم لهم أمرٌ يجمعهم

جاء استعمال مفردة (قوم) في قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾؛ للإيذان بأنَّه من مقوِّمات قوميَّتهم، والمقصودُ جنسُهم على طريقة المجاز، فقد نُزِّل منزلة الإنس لأجل هذه الحالة الشَّبيهة بحالة النّاس، فإطلاق القوم على أُمَّة الجنِّ نظيرُ إطلاق النَّفر على الفريق من الجنِّ المصروف إلى سماع القرآن[1]، وقومُ الرَّجلِ: شيعتُه وعشيرته[2].

دلالةُ إضافةِ القوم إلى الضَّمير:

الإحـــســـاسُ بالانتماء يَبعث على الاهتمام

أُضيف لفظ (قوم) إلى ضمير جماعةِ نفر الجنِّ المؤمن، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾؛ للإيحاءِ بشفقتهم عليهم، واهتمامهم لشأنهم، وحرصهم على تدارُك إنجائهم واستنقاذهم ممّا يلفُّهم من ضلال، وإخراجهم إلى نور الإيمان بهذا القرآن الكريم؛ لأنَّهم منهم وبهم.

نكتةُ تقديم ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ على ﴿مُّنذِرِينَ﴾:

ولاءُ الأصـلاء لأقوامهم أولويَّةٌ فـي الـدّيـانـةِ والمروءة

قُدِّم قيد ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ على الحال ﴿مُّنذِرِينَ﴾ في جملة: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، فلم يقل: (ولَّوا منذرين إلى قومِهم)؛ لبيانِ شديدِ حرصهم على استنقاذ ﴿قَوْمِهِم﴾، ممّا هم فيه من كفر وضلال، وأنَّ وِجهتهم وغايتهم لم تكن إلّا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾؛ ففي هذا التَّقديم دلالة القصر الحقيقي التَّحقيقي الكاشف عن شدَّة ارتباطهم النَّفسيِّ بقومهم، وأنَّهم لم يُعنوا بشيء حينئذٍ إلّا تدارك قومهم، وإخبارهم خبر القرآن العظيم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 59.
(2) رضا، أحمد، معجم متن اللغة: (قوم).

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿مُّنذِرِينَ﴾ دون (مبشرين):

الإنـذارُ يكون للكافرِ أو الغافل والتَّبشير للمؤمنِ المطيع

دلَّ ذِكرُ الإنذار دون التَّبشير في قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، أي: مخوفين إيّاهم عاقبة الصُّدود عن الإيمان، والبقاء على الكفر، فالمنذر هو المُخبر بخبرٍ مخيف[1]، وقد آثر نفرُ الجنِّ المؤمنين إنذارَ قومِهم دون تبشيرهم؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تخليتهم عن الكفر، وتداركهم وإخراجهم من ظلماته إلى نور الإيمان، أمّا البشارة؛ فلها مقام آخر غير هذا؛ لأنَّها تقدِّم للمؤمنين تحليةً، وهؤلاء ما آمن قومهم بعد، وفي إنذارهم قومهم كناية عن أنَّ نفر الجنِّ الَّذين استمعوا القرآن آمنوا بالنَّبيِّ ﷺ فورًا.

لطيفةُ صوغ الحال اسم فاعل ﴿مُّنذِرِينَ﴾:

المؤمنُ صادقُ النّيَّة راسخ العزيمة

جاء وصف ﴿مُّنذِرِينَ﴾ حالًا، أي: "مقدِّرين إنذارَهم عند وصولهم إليهم"[2]، وفي صوغهِ اسمَ فاعلٍ إشارةٌ إلى صِدق نيَّتهم في اهتداء قومهم، ورسوخ رغبتهم وقوَّة عزيمتهم في الأخذ بأيديهم إلى ساحة الإيمان؛ "نُصحًا منهم لهم، وإقامة لِحُجَّة الله تعالى عليهم، وقد قيَّضَهم الله تعالى معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجنِّ"[3].

نكتةُ حذف متعلَّق ﴿مُّنذِرِينَ﴾:

الإيجازُ بالحذفِ من بليغِ التَّعبير وجميل البيان

آثر النَّظمُ الكريم حذف متعلَّق ﴿مُّنذِرِينَ﴾؛ وذلك لبيانِ قوَّة الفعلِ، وأنَّه المقصودُ دون ذكر متعلَّقه، فعملهم الإنذار، ويحتمل أن يكون الحذفُ لِوضوح المقصود، فهُم يُنذرون قومَهم "عذابَ الله؛ إن لَم يؤمنوا"[4]، ولا مانع من اجتماع النُّكتتين، فهُم يقومون بالإنذارِ لشديدِ العنايةِ به، والمقصود بالإنذارِ معلومٌ من السّياق، فيكون الحذف إيجازًا بديعًا، مع الاعتناء بالفاصلةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 59.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 187.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 783.
(4) الواحدي التفسير، الوسيط: 4/ 115.

علَّةُ فصل جملة ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ﴾:

التَّراكيب القرآنيَّة متعانقة الدَّلالات متَّسقة العطاءات

فُصِلت جملة: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، عن جملة: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال المعنويِّ؛ إذ جاءت جملة: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ﴾ تفسيرية، مُبَيِّنَةٌ لِلحال ﴿مُّنذِرِينَ﴾[1]، شارحة له، ويحتمل أن يكون الفصلُ من باب شبه كمال الاتِّصال، أي: الاستئناف البيانيُّ، فلمّا كان كأنَّه قيل: ما قالوا لهم في إنذارهم؟ قيل: ﴿قَالُواْ﴾، أي: لقومهم حين أقبلوا عليهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾ مترقِّقين لهم ومشفقين بهم بذكر ما يدلُّ على أنَّهم منهم يهمُّهم ما يهمُّهم، ويكربهم ما يكربهم[2].

براعةُ ذِكر فعل ﴿قَالُواْ﴾ ودلالة التَّعبير به عن المعاني لا الألفاظ:

القرآنُ يَنقُل معانيَ ما أراده المخلوقون بنظمٍ جامع ولفظٍ صادق

فِعل القول في جملة ﴿قَالُواْ﴾ مجازٌ عبَّر به النَّظم الكريم عن (الإفادة)، أي: أفادوا جنسهم - بما فهموا منه بِطُرق الاستفادة عندهم - معانيَ ما حُكي بالقول في هذه الآية، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل: 18][3]، فقد أفهمت النَّملةُ بني جنسها بلغتها والقرآن الكريم ترجم ذلك بالفعل ﴿قَالَتۡ﴾ [النمل: 18]، فإنَّ الله تعالى ضمَّن معانيَ أقوال الإنس والجان والحيوان في القرآن، دون ألفاظِهم ونظوم كلامهم الحرفي، فأتى بأبدع ممّا قالوا، وأدقَّ ممّا أرادوا من كلامِهم المنظوم، ففيه بيانٌ لما أرادوه، وتخيَّلوه، مع تصويرِ الحالِ وبيانِ المشهد والكشف عمّا تختلجه النُّفوس، وهذا لا يكون لأحدٍ من البشرِ، فهو أحد أوجه الإعجاز.

دلالةُ النِّداء بأداة البعيد:

الدّاعيةُ رفيقٌ لطيفٌ بمن يدعوهم

دلَّ استعمال أداة النِّداء للبعيد في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 59.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 180.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 59.

على تَحنينٍ واستمالةٍ وتَلطُّف النَّفر المؤمن من الجنِّ لقومهم إلى قبول الدَّعوة إلى الإسلام، وفي ذلك دلالةٌ على رحمتهم وشفقتهم بقومهم، وحرصهم على اهتدائهم، ففيه عبرةٌ للبشرِ أن يتعلَّموا هذا اللُّطفَ بالمدعوّين.

فائدةُ ذكرِ لفظِ (قوم) مع تقدُّمِ ذكرِه:

إظهارُ قيمةِ الرَّحمةِ والمودَّة في دعوةِ القريبِ

آثر النَّظم الكريم ذِكر لفظ (قوم) في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾، مع أنَّه تقدَّم ذِكرُ هذا اللَّفظِ في جملة: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾، فلو قيل: (ولَّوا إلى قومهم منذرين، قالوا: إنّا سمعنا قرآنًا عجبًا)؛ لفُهم أنَّ المقصودَ هم القوم، ولكنَّ النَّظم الكريم ذكر لفظ (قومنا)؛ لبيانِ عنصر الحكمةِ في الخطاب، المتضمِّن معاني اللُّطف والرِّقَّة والتَّودُّد في التَّوطئة للدَّعوةِ، وهذا المعنى لا يتحقَّق بحذف اللفظ.

دلالةُ الإضافة في قوله: (قومنا):

اتِّخاذُ الدَّعاةِ وسائلَ الاستمالةِ أنشطُ في قبولِ الحقِّ

في إضافة (قوم) إلى ضمير النَّفر المتكلِّمين في قولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ مزيد تلطُّف بقومهم، وإشعار لهم بمنزلتهم منهم؛ استمالةً لهم، ورحمةً بهم، وضمانًا لقبولهم دعوتهم، وأنَّهم منهم، يُهمُّهم ما يُهمُّهم، ويَكرُبهم ما يَكرُبهم كما قيل:

إنَّ أخاك الحقَّ مَن كان معك *** ومن يَضُرُّ نفسَه لينفعك[1]

فكأنَّهم قالوا لهم: أنتم قومنا، ففيها معنى اللّام على معنى: قوم لنا، أو (من) على معنى: قوم منا، وفي ذلك توجيهٌ للدُّعاة إلى الله تعالى أن يتَّخذوا وسائل الاستمالة إلى قبول الدَّعوة.

غرضُ توكيد الخبر ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، مشتملًا على التَّوكيدِ، وهو يقتضي علمَهم بأنَّ قومَهم لا يتحوَّلون عن دينِهم،

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 180.

خطابُ أصحابِ المعتقداتِ يحتاجُ إلى مزيدِ إقناعٍ وكبيرِ إمتاعٍ

ولا يتخلَّون عنه إلى دينٍ جديد بمجرَّد خبرٍ خالٍ من التَّوكيد، فعملوا على انتزاع ذلك التَّمنُّع من نفوسهم بمجموع التَّهيئة من النِّداء، وإضافة (قوم) إليهم، وتوكيد الخبر.

"ولمّا كانوا بنزول ما في أسفار الأنبياء من بني إسرائيل والزَّبور والإنجيل خالية من الأحكام والحدود - إلّا يسيرًا من ذلك في الإنجيل - قاطعين أو كالقاطعين بأنَّه لا ينزل كتاب يناظر التَّوراة في الأحكام والحدود وغيرها، فكان قومهم ربَّما توقَّفوا في الإخبار بإنزال ما هو أشرف من ذلك؛ أكَّدوا قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾"[1].

سرُّ استعمالِ مفردة السَّماع دون الاستماع:

الاستماعُ وصفٌ لكاملِ المشهدِ والسَّماعُ لأبرزِ جوانبه

آثر النَّظم الكريم استعمال لفظ السَّماع دون الاستماع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، مع أنَّه تقدَّم استعمال لفظ الاستماع في قوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ وذلك لما في فعل ﴿سَمِعْنَا﴾ من ذكر مجرَّد السَّماع دون بيانِ الحالة النَّفسيَّة الَّتي مرّوا بها، بخلاف ما وصف به القرآن حالَهم من الاستماع؛ لأنَّ القرآنَ يصفُ حالَهم الكاملةَ، وأمّا هم؛ فذكروا جانبًا من جوانبِ تلك الحالةِ، وهي الأجدر بالذِّكر، وهو كونهم سمعوا قرآنًا، ففرَّق بين وصفِ القرآن للمشهد بكاملِه، وبين وصف المتكلِّمين للجانب الأهم.

دلالةُ إسناد فعل السَّماع إلى الضَّمير:

تأكيدُ نسبةِ سماعِ الخبرِ يطمئنُ المخاطَبَ، ويهيِّئه لقبوله

في إسناد فعل السَّماع إلى ضمير نفر الجنِّ المؤمن في قولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ تقريرٌ؛ لنسبة ذلك السَّماع إليهم جميعًا، وأنَّهم سمعوه كلُّهم بآذانهم، وعقلوه كلُّهم بعقولهم، وتشرَّبوه كلُّهم بقلوبهم، ولم يُخبَروا به دون حضوره، وذلك التَّأكيد لنسبة السَّماع إلى ضميرهم يدعم تصديق قومهم لهم، وقبولهم ذلك الإنذار، وإيلائه العنايةَ والاهتمام المرجوَّ منهم، فيقبلونه، ويؤمنون به، وهذا مأمولُ النَّفر المؤمن.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 180.

فائدةُ وصف القرآن بالكتاب بعد ذكره بأنَّه ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾:

القرآنُ والتَّوراةُ كلاهما كتابٌ من مشكاةٍ واحدة

وصف نفر الجنِّ المؤمن القرآن الكريم بلفظِ ﴿كِتَٰبًا﴾ في قولهم لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾، وهو القرآن، بينما أسماه النَّظم الكريم بـ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ وذلك أنَّه لمّا استمعوه بآذانهم عُبِّر عنه بـ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ لمناسبة المقروء للاستماعِ، أمّا في إخبارهم قومهم خَبَرَهُ؛ فعبَّروا عنه بلفظِ ﴿كِتَٰبًا﴾؛ وجاء ذلك توطئةً لذكر كتاب موسى ﷺ في قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، فالتَّوراة معهودةٌ عندهم بأنَّها كتاب، فجاء وصفُ القرآن بأنَّه كتابٌ؛ ليوافق وصفَ التَّوراةِ عندهم بأنَّها كتاب؛ للإعلام بأنَّهما من مشكاة واحدة، كما قالوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿كِتَٰبًا﴾:

تعظيمُ شأنِ القرآن في نفوس الجنِّ وتفخيمُ مكانته

نُكِّر لفظُ ﴿كِتَٰبًا﴾ في قول نفر الجن المؤمن: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾؛ ليُضفي عليه الفخامة والجلال، وأنَّه كتاب "عظيم القدر رفيع الشَّأن"[1]، كما كان الأمرُ المعهودُ لكتابِ موسى ﷺ، فلا يُقادَر قدرُه، ولا يُحاط بفضله، فما أعظمه! وما أفخمه من كتاب! وقد أصاب نفر الجنِّ الحقيقة في هذا التَّعظيم.

نكتةُ وصف القرآن بجملة ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾:

ارتقابُ أوصافِ النَّكرةِ يجعلها في النُّفوس أمكنَ

حين نكَّر النَّفر من الجنِّ ﴿كِتَٰبًا﴾؛ زادوا شوق مخاطَبيهم إلى معرفة أوصافه، فجاءت جملة: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ مفعَمةً بالدَّلالات والإشارات الَّتي تَروي ذلك الشَّوق، ذلك أنَّ وصف الكتابِ بأنَّه أُنزِل من بعد التَّوراة، دليلٌ على إيمانِ الجنِّ بالتَّوراة، وأنَّهم يُسلمون ما فيه من كونه سيأتي نبيٌّ آخر الزَّمان، ومعه كتابٌ ناسخٌ ومهيمنٌ على التَّوراة.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 935.

بلاغة المجاز في الفعل ﴿أُنزِلَ﴾:

القرآنُ الكريم مكتمل الظُّهور، متمايز الخصائص، مُعَلَّى الشَّرَف

أصل المعنى في مادة (نزل) الانحطاط من علوٍّ[1]، وذلك يكون للمحسوسات، وعلى ذلك ففي الإنزال هنا استعارة مكنيَّة، بتشبيه القرآن الكريم بشيء مجسَّدٍ محسوس أنزل من علوٍّ.

وتلك الصّورة تُضْفي على الـ(كتاب) صفةَ التَّجسيد، والتَّميُّز، واكتمال الخصائص، وعلوِّ المكانة والشَّرف، والصّيغةُ الماضيةُ تُفصِح عن تحقُّق نزوله مِن عُلوٍّ، من جهة السَّماء على رسول الله ﷺ.

دلالةُ بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ للمفعول:

حذفُ الفاعلِ لتوفير العناية على تدبُّر المذكور

في بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لغير فاعله في جملة الصِّفة: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ دلالةٌ على علم الجميع بفاعل الإنزال وتَعيُّنه واشتهاره، وأنَّه ليس إلّا الواحد الأحد، الَّذي لا يُنزِل غيرُه، وما دام الأمر على ذلك؛ فليكن التَّركيز على بقيَّة التَّفاصيل في بيان أوصاف الكتاب.

وقد استدلَّ النَّفر المؤمن من الجنِّ على إنزاله من عند الله تعالى بـ "أنَّ عليه من رونق الكتب الإلهيَّة ما يوجب القطعَ لسامعه بأنَّه منها، فكيف إذا انضمَّ إلى ذلك الإعجازُ؟ وقد علموا قطعًا بعربيَّته أنَّه عربيٌّ، وبأنَّهم كانوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، ويسمعون قراءة النّاس؛ لِما يُحَدِّثونه من الحكم والخطب والكهانة والرَّسائل والأشعار، وبأنَّه مباين لجميع ذلك أنَّه قريب العهد بالنُّزول من محلِّ العظمة"[2].

نوعُ ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُها:

اعتقادُ الجنِّ بالتَّوراةِ باعتبارِها شاملةً للعقيدة والشَّريعة

دلَّ حرفُ ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ على ابتداءِ الإنزال، وذلك أنَّ الجنَّ آمنوا بموسى ﷺ، ويحتمل أنَّهم لم يعلموا بشأن عيسى ﷺ، ولذلك قالوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، أو أنَّهم آمنوا

(1) رضا، معجم متن اللغة: (نزل).
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 181.

بعيسى ﷺ، لكنَّهم لا يعدّون كتابًا مكتملَ الأركان في العقيدة والشَّريعة والأحكام والأخلاق إلّا التَّوراة، والَّذي يوازيها هو القرآن، فبهذا الاعتبارِ كان ذكرُ كتابِ موسى ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾:

هيمنةُ القرآنِ على التَّوراةِ قد تُظهرُ عداوةَ المتعصِّبين

في ذكر القيد ﴿بَعۡدِ﴾ في جملة الوصف: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ دليل على أنَّ القوم المنذَرين كانوا مؤمنين بموسى وكتابه (التَّوراة)، وأنَّ نفر الجنِّ المؤمن يحاول جهده انتزاع ذلك الاعتقاد، ومحو ذلك اليقين بإثبات كون القرآن الَّذي سمعوه ﴿كِتَٰبًا﴾ جديدًا مهيمنًا على كتاب موسى ﷺ؛ إذ قد أُنزل ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ التَّوراة، والعرف والعادة يجريان على أنَّ الجديد من كلِّ شيء هو الَّذي يهيمن على القديم بتفاصيل وزيادات وإضافات.

دلالةُ ذِكر ﴿مُوسَىٰ﴾ مجرَّدًا من الوصف:

المعتادُ سابقٌ على اللِّسان

في ذكر نفر الجنِّ المؤمن ﴿مُوسَىٰ﴾ ﷺ مجرَّدًا من الوصف بالرَّسول أو النَّبيِّ، وذلك على عادةِ اليهود في ذكر نبيِّ الله موسى ﷺ باسمه المجرَّد عن اللَّقب العظيم، وقد جرت عادةُ القومِ بذلك، كما هو بيِّن في آيات القرآن الكريم في الحوارات الكثيرة بين موسى ﷺ وبني إسرائيل.

نكتةُ تخصيص ﴿مُوسَىٰ﴾ ﷺ بالذِّكر:

التَّوراةُ أجلُّ الكتب قبلَ القرآن، والإنجيل مُتَمِّمٌ لها

خصَّ نفر الجن المؤمن ﴿مُوسَىٰ﴾ ﷺ بالذِّكر في قولهم: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، أي: الرَّسول المتَّفق على تعظيم كتابه[1]؛ إذ كان ذلك النَّفر وقومهم يهودًا تابعين لموسى ﷺ وديانته، وقد لا تكون دعوة عيسى ﷺ قد بلغتهم، أو بلغتهم لكنَّهم ظلّوا على اليهوديَّة؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ كان يُبعث في قومه خاصَّة إلّا الرَّسول ﷺ[2]، أو "لأنَّه متَّفَقٌ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 452.

(2) ففي الحديث الشريف: «وَكانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إلَى قَوْمِهِ خاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلَى النّاسِ عامَّةً»، يُنظر: البخاري، صحيح البخاري، برقم: (328).

عليه عند أهل الكتابين، ولأنَّ الكتاب المنزل عليه أجلُّ الكتب قبْلَ القرآن، وكان عيسى ﷺ مأمورًا بالعمل بِمُعظم ما فيه أو بِكُلِّه"[1]، أو "لأنَّ (التَّوراة) آخر كتاب من كتب الشَّرائع نزل قبل القرآن، وأمّا ما جاء بعده؛ فكتب مكمِّلة للتوراة ومبيِّنة لها مثل (زبور داود) و (إنجيل عيسى)[2] ﷺ فكأنَّه لم ينزل شيء جديد بعد (التوراة)، فلمّا نزل القرآن جاء بِهَدي مستقلٍّ غيرِ مقصود منه بيان التَّوراة، ولكنَّه مصدِّقٌ للتَّوراة، وهادٍ إلى أزيدِ ممّا هَدَت إليه (التَّوراة)"[3].

أو أنَّهم "لم يَعتدّوا بما أنزل بين هذا الكتاب وبين التَّوراة من الإنجيل وما قبله؛ لأنَّه لا يساوي التَّوراة في الجمع، ولا يَعْشِرُ[4] هذا الكتاب - أي: القرآن الكريم - في الأحكام والحكم واللَّطائف والمواعظ مع ما زاد به من الإعجاز وغيره"[5]، أو "لأنَّ كتاب موسى ﷺ أصلٌ للإنجيل، وعمدةٌ لبني إسرائيل في أحكام الشَّرع، وإنَّما الإنجيل مُتَمِّمٌ ومكمِّل ومغيِّر لبعض الأحكام"[6]، أو ذكروا موسى ﷺ؛ "تنبيهًا لقومهم على اتِّباع الرَّسول؛ إذ كان ﷺ قد بَشَّر به موسى ﷺ، فقالوا ذلك من حيث إنَّ هذا الأمر مذكور في التَّوراة، مصدِّقًا لما بين يديه من التَّوراة والإنجيل والكتب الإلهيَّة؛ إذ كانت كلُّها مشتملة على التَّوحيد والنُّبوَّة والمَعاد، والأمر بتطهير الأخلاق"[7]، وجميعُ هذه الاحتمالات ممكنةٌ.

بلاغةُ الاحتراسِ في وصف ﴿كِتَٰبًا﴾ بصفة ﴿مُصَدِّقًا﴾:

في وصف نفر الجنِّ المؤمن ﴿كِتَٰبًا﴾ بوصف آخر، وهو ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا

القرآنُ جاء مصدِّقًا لما سبقَ، فالمصدر واحد والغاية واحدة، وهي هداية النّاس

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 188.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 188.
(4) "عشر يعشِرُ: أخذ واحدًا من عشرة، أو زاد واحدًا على تِسعة"، ينظر: الفيروزابادي، القاموس المحيط: (عشر).
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 181.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 783.
(7) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 9/ 450.

﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: "وقد علمنا صِدقه؛ لِكونه مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيْهِ من هذه الكتب كلِّها"[1]، ففي هذا الوصف احتراسٌ من سَبْق ظنِّ قومهم إلى أنَّ ذلك الكتاب يناقض ما بين أيديهم، فجاء الوصف الثاني ﴿مُصَدِّقَا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ متمِّمًا للوصف الأوَّل ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، ومبيِّنًا أنَّه امتداد لكتاب موسى، ومؤسَّسٌ عليه وملائمٌ له، وأنَّ مصدرهما واحد، وغايتهما واحدة، هي هداية النّاس إلى الله تعالى.

لطيفةُ تقديم وصف ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ على وصف ﴿مُصَدِّقَا﴾:

رتَّب النَّظمُ الكريم ذِكرَ تصديق الكتاب العزيز (القرآن الكريم) على ذِكر إنزاله من بعد موسى في قول نفر الجنِّ: ﴿كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ وذلك لتوقُّف الوصف الثّاني: ﴿مُصَدِّقًا﴾ على تَحقُّق الوصف الأوَّل ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّه إن لم يكن مُنزَلًا من بعده؛ لم يكن مصدِّقًا له أن يكون منزلًا ومكَمِّلًا وامتدادًا له، فمقتضى تصديقه له أن يكون منزَّلًا من عند الله تعالى، وأن تكون مشكاتُهُما واحدةً، وأنوارُهما متكامِلةً.

من دلائل تصديق القرآن للتَّوراةِ أن يكون امتدادًا ومكمِّلًا لها

نوعُ (اللام) ودلالتُها:

(اللام) في القيد ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لام الاختصاص، أي: إنَّ إنزال القرآن الكريم يختصُّ بتصديق الكتب السَّماوية السّابقة، والاتِّحاد في بيان عقائدها من حيث التَّوحيد الخالص، والإيمان بالأسماء والصِّفات، وما إلى ذلك من ثوابت الدّين الحقِّ، ثم يَبقى لكلِّ كتابٍ ولكلِّ أمَّةٍ تفاصيلُ شريعتها، المناسبة لأهلها وأزمانهم وما يصلح لترتيب أحوالهم.

الكتبُ السَّماويَّة متَّفقة في عقيدة التَّوحيد، مختلفة الشَّرائع

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما):

(ما) في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقَا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ موصولة، أي:

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 452.

ومصدِّقًا لجميع الكتب الَّتي سبقته نزولًا من عند الله تعالى، كـ "التَّوراة والإنجيل والزَّبور وصحف إبراهيم وغيرها"[1]، واستفادةُ العموم بكلمةٍ من حرفين هي (ما) يَدلُّ على فضيلة اسم الموصول.

من فضائل الموصول الإيجازُ والعمومُ الشُّمولي

والتَّعبيرُ بالاسم الموصول (ما) يُغني عن تَعداد أسماء الكتب السَّماوية كلِّها، فوجْهُ إيثار (ما) أنَّها عنصرُ إيجازٍ وجمع لأسماء الكتب المقصودة، واستيعابها كلها فيها؛ ممّا يَخرج تفصيله عن حدود الإيجاز المطلوب.

وكذلك من فضائل الموصول (ما) إتاحةُ التَّركيب؛ لبيان تفاصيل وحيثيات تتعلَّق بالمعبَّر به عنه ممّا تَتَضَمَّنُه الصِّلة، وهي مقدَّرة، ومتعلَّقُها هنا الظَّرف ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، والتَّقديرُ: (مصدِّقًا لما سَبَق إنزالُه بين يديه).

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة:

تصويرُ المعاني الكلّيَّة سبيلُ القرآن في استجلابِ المعاني

في التَّعبير بالظَّرف ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تصوير للرِّسالات السابقة ورسالة القرآن الكريم بأشخاص قائمين بين يدي شخص ما، وهو قائم بِعَقِبهم ويسير على إثرهم؛ يتمِّم أعمالهم، ففي الظَّرف ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استعارة تمثيليَّة، كاشفة عن مكانة القرآن الكريم، ومنزلة رسالة الإسلام مِن الكتب والرِّسالات السّابقة.

تعيينُ مرجع الضَّمير في قوله: ﴿يَدَيْهِ﴾:

الضَّمير المضاف إليه في ﴿يَدَيْهِ﴾ يرجع إلى ﴿كِتَٰبًا﴾ المتقدِّم ذكره في قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾، فالَّذي بين يديه الكتب السّابقة، وهو اللّاحق لَها.

بلاغةُ ترتيب الأوصاف للكتاب:

رُتِّب ذِكر الوصف الثّالث: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(1) خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 38.

على الوصف الثاني السّابق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ترتُّبًا تصاعديًّا؛ لتطمين القوم المدعوّين، فقدَّم النَّفرُ المتكلِّم لقومهم ما يُهيِّئ لِما بعده، فبدَؤوا بالوصف الأوَّل لـ ﴿كِتَبًا﴾، وهو جملة ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّ هذا مكمنُ توقُّف قومهم في القبول ابتداءً، ثم أزاحوا التَّحفُّظ التّالي بالوصف الثّاني ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ثم زادوا عليه ما يُثبِّت الطُّمأنينة إليه بجملة: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾.

ترتيب المعاني القرآنيَّة يراعي أحوال المخاطَبين، ويعالج أحوالهم

ثلاث صفات متلاحقة للكتاب العزيز، تتلاحق بلا عاطف يَعطف بعضها على بعض، وفي ذلك تمييز لكلٍّ منها وصفًا مستقلًّا كافيًا وحده في إقناع المخاطَبين بالإيمان بهذا الكتاب، والاستمساك به وبهُداه.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة الهدى:

ختم نفر الجنِّ المؤمن أوصاف القرآن الكريم بوصف ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، ومعلوم أنَّ الهدايةَ هدايتان: هداية إرشاد ودلالة وتوجيه، وهداية معونة وتوفيق وتسديد، والكتاب العزيز يهدي هداية إرشاد ودلالة وتوجيه، فـ "يرشد إلى الصَّواب، ويدلُّ على ما فيه للّٰه رضا"[1]، وقد فطن النَّفر لذلك، فعن "قتادة أنَّه قرأ: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقال: ما أسرعَ ما عَقَلَ القوم!"[2].

القرآن الكريم يُرشد إلى الهدى، ويَدلُّ على ما فيه الرِّضا

دلالةُ المضارع في فعل ﴿يَهْدِىٓ﴾:

في صَوْغ فعلِ الهداية مضارعًا في قوله تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ استحضارٌ لأثر القرآن الكريم في متلقّيه، كما أنَّ المضارعة توحي بأنَّه كتابٌ غضُّ العطاء، وأنَّه سيظلُّ ينبوع إرشاد متجدِّدًا، ونبراس هداية لا ينطفئ إلى يوم الدين.

القرآنُ الكريم ينبوع إرشاد متجدِّد، ونبراس هداية لا ينطفئ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 171.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 172.

دلالةُ حرف ﴿إِلَىٰ﴾:

الـهُـدى سبب سعادة المهتدي

دلَّ حرفُ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ على كون القرآنِ غايته الهداية الموصلة إلى الحقِّ، وهي في حاقِّ موضعها؛ إذ إنَّ غاية كلِّ هُدًى توصيلُ المهتدي إلى ﴿ٱلۡحَقِّ﴾، فإذا وصل، وانتهى، وبلغ تلك الغاية؛ فقد بلغ السَّعادةَ، وحصَّل سببَها.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

صوَرُ الاستقامةِ تَستمدُّ أنوارها مِـن مـشـكـاة القرآن الكريم

(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ تدلُّ على الاستغراق، وتُقرِّر انضواء كلِّ صور الاستقامة - قولًا وعملًا - تحت هدايات القرآن الكريم، وأنَّ كلَّ فتائل الهُدى تَستمدُّ أنوارها، وتستقي بركاتها من مشكاة واحدة هي ذلك الكتاب ﴿ٱلۡحَقِّ﴾، "الثّابتُ الَّذي يطابقه الواقع، فلا يَقدر أحدٌ على إزالة شيء ممّا يُخبِر به، الكاملُ في جميع ذلك"[1]، ومن ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ العقائدُ الصَّحيحة[2]، و"القرآنُ مشتمِلٌ على شيئين: خبرٍ وطَلَب، فخبرُه صِدْقٌ وطَلَبُه عَدْل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: 115]"[3].

نوعُ (الواو) ودلالتُها الرّابطة:

عطفُ المبيَّن على المبَيَّن إيجازٌ في العبارةِ وشمولٌ للمعنى

(الواو) في جملة: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ عاطفة، تُشرِكُ معطوفَها (إلى طريق مستقيم) مع المعطوف عليه ﴿إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ في هداية الكتاب العزيز، من باب عطف المبيِّن على المبَيَّن؛ لأنَّ الحقَّ هو الطَّريق المستقيم، وهما معًا يُمثِّلان الدّينَ الحنيف بِشُعبتيه العقديَّة والتَّشريعيَّة، وذلك هو الإيجازُ البليغ.

و﴿ٱلۡحَقِّ﴾ والطريق المستقيم هنا بمعنًى يتقارب، و﴿ٱلۡحَقِّ﴾ أعمُّ، فهُما من "ذِكر العامِّ بعد الخاصّ"[4]، وكأنَّ أحدَهما قد يقع في

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 182.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 88.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 645.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 936.

مواضعَ لا يقع فيها الآخر؛ لذلك حسُن التَّكرار[1]؛ لبيانِ أنَّ الحقَّ هو المقصودُ بالهدايةِ، والطَّريق المستقيم؛ لبيانِ أنَّه الموصل، ولم يكن بدعًا من الرِّسالات السّابقة.

نكتةُ تكرار (إلى) في قوله: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

كُرِّر ذكرُ حرف انتهاء الغاية (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بعد سبْق ذكره في المعطوف عليه ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾؛ للتَّأكيد على أنَّ غاية هذا الكتاب العزيز هي الأخْذ بأيدي الناس إلى غاية الغايات بالنسبة له؛ إذ تتحقَّق السَّعادة الروحيَّة والراحة البدنيَّة في الدُّنيا والآخرة، وأسباب ذلك سلوك الطَّريق المستقيم واتِّباع الحقِّ.

اتِّباعُ الحقِّ وسلوكُ الطريقِ المستقيم سبيلُ السَّعادة في الدّارَيْن

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿طَرِيقٍ﴾:

آثر النَّظم الكريم ذكرَ لفظ الطَّريق وهو "كلُّ ما يَطرقه طارقٌ معتادًا كان أو غيرَ معتاد"[2]، فاستعمالُ لفظ الطَّريق؛ لبيانِ أنَّه يهدي لأمرٍ فطريٍّ طرقَه النّاسُ المؤمنون من قبل، من أتباع الدين الحقِّ، وليس هو بدعًا من الطُّرق، وهو الإسلام، وما يُسلَك من الأعمال والمعاملة، وما يترتَّب على ذلك من الجزاء.

الإسلامُ دينُ جميعِ السّابقين وهو مطروقٌ معلومٌ

وقد شُبِّه الإسلامُ بالطَّريق المستقيم، الَّذي لا يَضِلُّ سالِكُه عن القصد مِن سَيْرِه[3]، ففي ﴿طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة، غرضها المبالغة في بيان توصيل الدّين -مَن اعتَنَقَه، والتَزَم حُدوده- إلى سعادة الدّارين بيُسر، كما يوصِّل الطَّريقُ المستقيمُ إلى الغاية من سلوكه عبرَ أقصر مسافة.

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿طَرِيقٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿طَرِيقٍ﴾؛ ليدلَّ على أنَّهم رأوه عظيمًا، وأنزلوه منزلته

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 106.
(2) حقي، روح البيان: 5/ 13.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.

اللّائقة به، وفي ذلك دليلٌ وعيهم، وبصَرهم بما فيه من خيرات دنيويَّة وأخرويَّة.

نكتةُ وصف ﴿طَرِيقٍ﴾ بلفظ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾:

تدلُّ الاستقامة في الوصف ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ على أنَّه "يوَصِّل بغايةِ ما يُمكن مِن السُّرعة، ولا يمكن أن يكون فيه عِوج، فيَقْدِر السّالكُ فيه على أن يختصر طريقًا يكون وترًا لِما تقوَّس منه"[1]، فهو "شديد التَّقوُّم؛ لأنَّه كأنَّه يريد أن يُقَوِّم نفسه، فهو بعد وجود تقوُّمه حافظٌ لها مِن أدنى خلل، وهو كلُّ ما دعا إليه مِن خصال هذا الدين الحنيف الذي هو مِلَّة إبراهيم ﷺ"[2]، والمقصود بالـ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ هنا "الشَّرائعُ والأعمال الصالحة"[3] التي كلَّفَ بها الدين الحنيف، وفي التَّعبيرُ عنها بالطَّريق المستقيم دلالةٌ على أنَّ من اتَّخذها طريقًا وصل بأقل جهدٍ، وأخصر وقت.

الطَّريقُ المستقيم أخصر الطُّرق الموصِّلة إلى الغاية

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّفر والجماعة:

النَّفْر، والنَّفيرُ: القومُ ينفِرون معك، ونَفَرُ القوم: جماعتُهم الذين ينفرون في الأمر[4]، والجماعة: عدد كبير من النَّاس[5]، والجَماعَة، والجَميع، والمَجْمَع، والمَجْمَعة: كالجمع، وقد استعملوا ذَلِك في غير النّاس، حَتَّى قالوا: جماعة الشَّجر، وجماعة النَّبات[6].

النَّفرُ جماعةٌ ملحوظٌ فيها النَّفر في أمرٍ، والجماعةُ مطلقُ الاجتماع

الاستماع والإنصات:

الاستماع: أنْ يُلقي سمعه، ويُحضر قلبَه، ويَتَدَبَّرَ ما يَسْتمع[7]،

الاستماع بالقلوبِ والآذان، والإنصات إسكات اللِّسان

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 182.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 373.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 88.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفر).
(5) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جمع).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جمع).
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 314.

والإنصات: السُّكوت مع الاستماع، أنْصَتَ، أي: كَفَّ لِسانه عن الكلام، واستَمَعَ، أي: أشْغَل سمعه بسماع الخطبة، قال النَّووي: هما شيئان متمايزان، وقد يجتمعان، فالاستماع الإصغاء، والإنصات السُّكوت، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: 204]، فظهر أنَّ الاستماع بالأذن، والإنصات باللِّسان[1].

(1) الهرري، شرح سنن ابن ماجه: 7/ 107.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"